

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences



جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

المواقف البريطانية وأثرها على الوضع الداخلي في عُمان في عهد السلطان سعيد بن سلطان

د. محمد اليحيائي

مستشار، مكتب وزير الثقافة
والرياضة والشباب
khazinah@gmail.com

المواقف البريطانية وأثرها على الوضع الداخلي في عُمان في عهد السلطان سعيد بن سلطان

د.محمد اليحيائي

الملخص

تناقش هذه الدراسة العلاقات العمانية البريطانية في عهد السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦)، إنما من زاوية تأثير المواقف التي اتخذتها بريطانيا حيال الأوضاع في عُمان، بما فيها الصراعات الداخلية، والحروب الخارجية التي خاضها السلطان سعيد دفاعاً عن أراضيه وممتلكاته ضد القوى الخارجية. الدراسة تتبع أبرز تلك المواقف والأدوار، عبر محطات تاريخية مختلفة، وكيف أثرت على الأوضاع في عُمان، وعلى علاقات عُمان بالقوى الدولية والإقليمية. وتبحث في سؤالين محوريين يتعلقان بمدى تأثير المواقف البريطانية من الصراع الداخلي والحروب الخارجية في عهد السلطان سعيد، والكيفية التي وظف بها السلطان المكانة السياسية والعسكرية التي كانت تمثلها بريطانيا في الخليج، لتعزيز حكمه ودولته؟ تمهد الدراسة عبر استعراض للعلاقات التاريخية التي ربطت عُمان ببريطانيا في المراحل المختلفة التي سبقت تولي سعيد بن سلطان الحكم، حيث ارتبطت عُمان بعلاقات شبه رسمية، ولكن غير مستقرة مع بريطانيا منذ منتصف القرن السابع عشر، وتحديداً، منذ أول اتصال رسمي بين البلدين عام ١٦٤٥، وذلك في عهد مؤسس الدولة اليعربية الإمام ناصر بن مرشد، ثم تتبعت الدراسة الاتصالات في عهد خلفه الإمام سلطان بن سيف الأول، حين طلبت بريطانيا إنشاء مقيمة لها في مسقط عام ١٦٥٩، وهو الطلب الذي رفضه الإمام اليعربي، لكن العلاقة بقيت تراوح بين الود والحذر حتى توقيع أول معاهدة بين البلدين عام ١٧٩٨، وذلك في عهد السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي. وبعد تولي السلطان سعيد بن سلطان مقاليد الحكم عام ١٨٠٦ توطدت العلاقة بين البلدين وأصبحت أقرب إلى التحالف بين قوة أوروبية تحاول الهيمنة على منطقتي الخليج والمحيط الهندي، وقوة عربية تعمل على تأكيد نفوذها في المجال الجغرافي ذاته.

الكلمات المفتاحية: عُمان، بريطانيا، سعيد بن سلطان، حكومة الهند البريطانية، القواسم، الوهابية، الخليج العربي.

British Positions and its Impact on the Internal situation in Oman during the Reign of Sultan Said bin Sultan

Mohamed Alyahyai

Abstract:

The semi – official relationships – but unstable- between Oman and Brittan has started in the mid17-th century, specifically with the first formal contact between the two countries in 1645, during the reign of the founder of the Yurubi Rule, Imam Nasser bin Murshid, and then continued under the Imam Sultan bin Saif, when Britain asked for the establishment of a resident in Muscat in 1659, a request that rejected by the Imam. However, this relationship remained swinging between friendliness and caution, until the signing of the first Treaty between the two countries in 1798. With the accession of Said bin Sultan in 1807, the relationship between the two countries has developed to a higher level. This study discusses the Omani-British relations during the rule of Sultan Said bin Sultan by assessing the positions of Britain towards the internal situations in Oman, including internal conflicts and external battles that Sultan Said had involved in. The core question of this study is that: had Britain's positions and roles aimed to strength Said's rule, or had to seek control over the course of events to enhance the political and commercial interests of Britain, and how Sultan Said had employed the political and military power represented by Britain to strengthen his Omani Empire, politically, militarily and economically?

Keywords: Oman; Britain; Said bin Sultan; Raj; Al Qawasim; Wahhabism; Arabian Gulf.

على عائدات عُمان من التجارة البحرية، (السالمي، ١٩٦١: ١٥٧). ولعل الخطر الوهابي، وتنامي قوة القواسم، كانا المدخل الأول لتوثيق العلاقة بين السلطان سعيد بن سلطان وبين البريطانيين، خصوصا وأن توالي سعيد الحكم تزامن مع رجحان كفة البريطانيين في المحيط الهندي، وفي السيطرة على مياه الخليج وموانئها الرئيسية، وضعف نفوذ القوى الأوروبية الأخرى؛ هولندا وفرنسا على وجه التحديد. وحسب وصف (ولوسن، ٢٠١٦: ١٨٠) للسلطان سعيد؛ فإنه ورغم ميله إلى توثيق العلاقة مع الفرنسيين، إلا أن حصافته السياسية هدته إلى السعي إلى التفاهم مع البريطانيين، لا سيما بعد انتزاع بريطانيا جزر موريشيوس من فرنسا عام ١٨١٠.

غير أن التفاهمات والعلاقات العمانية البريطانية بدأت قبل توالي سعيد بن سلطان الحكم بأكثر من قرن ونصف، وهو ما نرى من الأهمية استعراضه، بإيجاز، في سياق هذه الدراسة، تمهيدا لمناقشة وتحليل المواقف التي اتخذتها بريطانيا في عهد السلطان سعيد. ولكن بعد عرض الإطار المنهجي للدراسة.

الإطار المنهجي فرضية الدراسة

تقوم فرضية الدراسة على أن مصالح عُمان ومصالح بريطانيا، في عهد السلطان سعيد بن سلطان، تلاققت، وأن العلاقة بين الطرفين قامت على أساس تبادل المنفعة، غير أن القوة العسكرية والاقتصادية، إلى جانب النفوذ في فارس والهند، أعطت البريطانيين اليد العليا في كثير من الأمور. ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا في حاجة إلى ممرات آمنة لسفنها التجارية في الخليج، وإلى موقع استراتيجي كميناء مسقط، كان حكم سعيد بن سلطان يواجه تحديات ومخاطر، وفي حاجة إلى دعم قوة ذات حضور مادي ونفوذ معنوي لمساعدته على الثبات، وعلى مواجهة خصومه، كما على الحفاظ على مناطق النفوذ التي حققها حكام الدولة البوسعيدية في الفترات السابقة لتوالي سعيد بن سلطان الحكم.

أهمية الدراسة

تتمن أهمية الدراسة في محاولتها قراءة الأحداث والتحويلات التي طبعت العلاقات العمانية البريطانية في تلك الفترة، وفقا للمعطيات والنتائج، وليس وفقا لخطاب وأدبيات التفوق والتبعية التي اتسمت بها كثير من الدراسات التي ناقشت علاقات بريطانيا بدول منطقة الخليج العربية.

أهداف الدراسة

- تحاول الدراسة تحقيق جملة من الأهداف، أهمها:
- إعادة قراءة وكتابة تاريخ العلاقات العمانية البريطانية، من وجهة نظرمحايدة، تتجاوز القراءات الاستثنائية، وقراءات مع بعد "الكولونيالية" التي قدمها الغربيون وتقدم وجهة النظر الغربية من جهة، والقراءات التي قدمها بعض الباحثين العرب والتي تقوم على "نظرية المؤامرة" والتبعية والاستلاب من جهة ثانية.
- محاولة فهم الظروف والأحداث التي صاحبت صعود السلطان

تناقش هذه الدراسة العلاقات العمانية البريطانية في عهد السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦)، ولكن من زاوية المواقف التي اتخذتها بريطانيا حيال الأوضاع في عُمان أثناء سنوات حكمه، بما فيها الصراعات الداخلية، والحروب الخارجية التي خاضها السلطان سعيد دفاعا عن أراضيه وممتلكاته ضد القوى المنافسة، وأثر تلك المواقف على الوضع الداخلي في عُمان. ستتبع الدراسة أبرز تلك المواقف والأدوار، عبر محطات تاريخية مختلفة، وتناقش تأثيرها على الوضع الداخلي.

تولى السلطان سعيد بن سلطان حكم عُمان عام ١٨٠٦، وتعد فترة حكمه واحدة من أطول الفترات في تاريخ الأسرة البوسعيدية، إذ استمرت نحو نصف قرن حتى وفاته عام ١٨٥٦م، وكان أول من حمل لقب "سلطان" من السلالة البوسعيدية، (غباش، ١٩٩٧: ١٦٥).

يقسم (لوريمر، ١٩٧٦: ٥٨٩) فترة حكم سعيد بن سلطان إلى مرحلتين، الأولى تنتهي عام ١٨٢٩ وشهدت تركيز اهتمامه على الوضع في عُمان والخليج، حيث عمل على تثبيت نظام حكمه والتخلص من خصومه ومنافسيه. أما المرحلة التي بدأت بعد العام ١٨٢٩ وحتى العام ١٨٥٦، فقد انصب كامل اهتمامه فيها على الجزء الأفريقي من الدولة العمانية، وفي الفترتين، سيكون للبريطانيين دور مؤثر.

مثّلت لحظة صعود سعيد بن سلطان إلى واجهة المشهد السياسي واحدة من أكثر اللحظات صعوبة واضطرابا في تاريخ عُمان الحديث. فعلى الصعيد الداخلي، كانت الصراعات تعصف ببيت الحكم، بين أكثر من طامع في السلطة، سيما وأن وفاة السيد سلطان بن أحمد المفاجئة، تركت فراغا لم يكن من السهل على إبنه صغير السن؛ سالم وسعيد ملئه بسهولة، خصوصا مع وجود وجهين بارزين يدعيان الحق في الحكم، هما عمهما قيس بن أحمد، وكان يومها حاكما على صحار، وابن عمهما بدر بن سيف، وقد تمكن هذا الأخير من السيطرة على الحكم ولكن لفترة محدودة انتهت بمقتله في حصن "النعمان" في بركاء في ٣١ يوليو ١٨٠٦.

على الصعيد الداخلي أيضا، كانت الانقسامات والصراعات القبلية تبرز كلما ضعفت السلطة المركزية، ومن ذلك ما ذكره (السالمي، ١٩٦١: ١٥٧) عن استيلاء حاكم "الحزم" سيف بن سلطان اليعربي على "نخل" بعد قتله واليها مهنا بن محمد بن سليمان اليعربي، واضطرار سعيد بن سلطان إلى محاربتة واستعادة نخل. بل أن الانقسامات والصراعات بين أفراد الأسرة البوسعيدية غذّت الانقسامات القبلية، ووسّعت من دائرة التحالفات القبلية، وهو ما ظهر في حروب قيس بن أحمد ضد أبناء أخوته سعيد وسالم ابني سلطان من جهة، وبدر بن سيف من جهة ثانية، وموقف القبائل الغافرية المؤيد لأبني سلطان بن أحمد، وموقف قبائل الحدان المؤيد لقيس بن أحمد، (ابن رزيق، ٢٠١٦: ٣٩٩).

أما على الصعيد الخارجي، فكانت أطماع الوهابيين تحيق بعمان، وكان القواسم يزدادون قوة وخطرا على الملاحة البحرية، وبالتالي

اتفاقية وُقعت بين اليعاربة والبريطانيين، فإن الثابت أن اتصالاً رسمياً تم بين الدولة اليعربية الناشئة والتي كانت تكافح من أجل تحرير أراضيها من استعمار أوروبي ممثل في البرتغاليين، وبين قوة أوروبية أخرى هي بريطانيا.

وفي عهد ثاني الأئمة اليعاربة؛ سلطان بن سيف الأول (١٦٤٩-١٦٧٩) جرى الاتصال الثاني بين البلدين، وذلك عندما أوفد البريطانيون عام ١٦٥٩ الكولونيل رينزفورد Ransford للتفاوض من أجل الحصول على إحدى القلاع في مسقط وتحويلها إلى حامية عسكرية، غير أن الإمام رفض أن يكون هناك أي تواجد لقوة أجنبية على الأراضي العمانية، (السيار، ١٩٧٥: ٢٠٠).

ومع مجيء الدولة البوسعيدية، وفي عهد مؤسسها الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤٤-١٧٧٥) توثقت العلاقات أكثر، ولكن بقيت سياسة الإمام على الحياد في التعامل مع القوتين الأوروبيتين المتنافستين على السيطرة على مياه الخليج آنذاك، وهما بريطانيا وفرنسا. في المقابل اتخذت شركة الهند الشرقية موقفاً محايداً من الخلافات التي ما فتأت تتفجر بين حكومة الإمام أحمد من جهة، والحكومة الإيرانية وبعض شيوخ ساحل عُمان من جهة أخرى (لوريمر، ١٩٧٦: ٦٥٣). غير أن هذا الموقف المحايد لم يمنع البريطانيين من تجديد طلبهم إقامة مقر لهم في مسقط، لكن الإمام أحمد رفض الطلب. ومع حلول العام ١٧٧٣ شهدت العلاقات تقارباً أكثر بحيث أصبحت مسقط ميناءً تلتقي فيه السفن البريطانية المعتمدة في الخليج، (شاكر، ٢٠٠٥: ٢٦١).

ومع احتدام التنافس بين القوى الأوروبية على السيطرة على مياه الخليج وموانئه، والتحكم في خطوط التجارة البحرية بين الشرق والغرب، خصوصاً مع احتلال فرنسا لمصر عام ١٧٩٨، وجد البريطانيون أنفسهم في أمس الحاجة للتقارب مع مسقط، وذلك من أجل إنهاء أو إضعاف التقارب العماني الفرنسي، وفي ١٢ أكتوبر ١٧٩٨ نجحت شركة الهند الشرقية البريطانية من توقيع أول معاهدة بين البلدين وكانت مع السيد سلطان بن أحمد، والتي قطعت، في بنودها السبعة، الطريق على إمكانية إقامة أي وكالات تجارية لفرنسا وهولندا على الأراضي العمانية، وأي مناطق أخرى تابعة لحاكم عُمان. وفي ١٨ يناير ١٨٠٠ تم تأكيد معاهدة ١٧٩٨ بالتوقيع بين السيد سلطان ومبعوث شركة الهند الشرقية إلى مسقط الكابتن جون مالكولم بهادر على معاهدة أخرى، وذلك بسبب الشكوك التي ساورت البريطانيين حول وجود شكل من أشكال التقارب بين العمانيين والفرنسيين، (لوريمر، ١٩٧٦: ١٣٠)، (مختارات وثائق بومبي، ٢٠١٧: ١٣٠).

ونتيجة لمعاهدتي ١٧٩٨ و ١٨٠٠، عينت بريطانيا مقيماً سياسياً في مسقط هو الدكتور بوجل Bogle، الذي توفي بعد أشهر على تعيينه، فعُين بعده الكابتن دافيد سيتون David Seton.

وأثناء حكمه الذي لم يستمر سوى ثلاث سنوات، طلب بدر بن سيف البوسعيدي من الحكومة البريطانية في بومبي المساعدة على مواجهة الخطر الذي يمثله عمه قيس بن أحمد، وكان رأي المقيم البريطاني في مسقط "دافيد سيتون" أن المهم، في هذه الأزمة، هو الحفاظ على المصالح البريطانية، بصرف النظر عن يتولى الحكم،

سعيد إلى الحكم، والتي حكمت علاقته بالقوة الاستعمارية الصاعدة في المحيط الهندي والخليج يومذاك وهي بريطانيا، ذلك أن فهما دقيقاً للظروف والأحداث يقدم تفسيراً دقيقاً لطبيعة العلاقة، دون القبول بالتفسيرات الرائجة عن هيمنة بريطانية مطلقة.

أسئلة الدراسة

ستحاول الدراسة الإجابة عن سؤالين محوريين:

١. كيف أثرت المواقف التي اتخذتها بريطانيا من الصراع الداخلي والحروب والخارجية في عهد السلطان سعيد بن سلطان على الوضع الداخلي في عُمان؟ هل عززت المواقف البريطانية من حكم السلطان سعيد، وساعدته على التخلص من خصومه الداخليين والخارجيين، أم هدفت فقط إلى السيطرة والتحكم في مسار الأحداث لتحقيق المصالح والأطماع التجارية والسياسية لبريطانيا؟

٢. كيف تعامل السلطان سعيد، أو كيف استفاد من تلك المواقف، ومن المكانة السياسية والعسكرية التي كانت تمثلها بريطانيا في الخليج، لتعزيز حكمه، ومكانة الدولة العمانية، السياسية والعسكرية والاقتصادية، خصوصاً مع وجود أطماع لقوى إقليمية مد نفوذها السياسي والعقائدي والسيطرة على عُمان؟

منهج الدراسة

تعتمد الدراسة المنهج التاريخي التحليلي عبر قراءة الأحداث والتحويلات التي شهدتها فترة حكم السلطان سعيد، وتحليلها، والعودة إلى الوثائق المتوفرة عن تلك الفترة، وبعض الدراسات السابقة.

العلاقات العمانية البريطانية في مرحلة ما قبل حكم السلطان سعيد بن سلطان

تشير بعض المصادر المتأخرة إلى أن أول اتصال رسمي بين عُمان وبريطانيا يعود إلى العام ١٦٤٥ وذلك في عهد مؤسس الدولة اليعربية، الإمام ناصر بن مرشد (١٦٢٤-١٦٤٩)، حين أوفد البريطانيون أحد موظفي شركة الهند الشرقية البريطانية في سورات، ويدعى " فيليب وايلد Phillip Wild إلى صحار، بعد تحرير مينائها من قبضة البرتغاليين في العام نفسه. بهدف التفاوض بشأن عقد اتفاقية تعاون في الجوانب التجارية، كحرية الإستيراد والتصدير، والاعفاءات الضريبية المتبادلة بين البلدين، والاتفاق على قواعد خاصة بحسم المنازعات عند وقوعها بين رعايا البلدين (Skeet,1974: 211). وفي حين يذكر (الهنائي، ١٩٩٨: ٢٣) بيان الاتفاقية وقعت بين الإمام والموفد البريطاني في نفس العام، فإن (شاكر، ٢٠٠٥: ٢٥٩) يرى أنها وقعت في شهر فبراير من العام التالي ١٦٤٦، وهو الرأي الذي يشاركه فيه (ولكنسون، ٧٠:٢٠١٠) و (Clarck:229)، وإن كان ولكنسون يُقر بأن هذه الاتفاقية لم تكن ذات أهمية كبيرة في ذلك الوقت. أما (فوزي، ٢٠١٤: ١٩)، فيرى أن المفاوضات لم تفض إلى نتيجة محددة. وبصرف النظر عن نتيجة المفاوضات، وما إذا كان ثمة

نائباً عنه، لكنه أيضاً قام بسجن ابن عمه هلال بن محمد لأنه كان يخشى من طموحه في الاستيلاء على الحكم، وما أن اتخذ هذه الإجراءات وأبحر، حتى أشعلت جوخة بنت محمد شقيقة هلال قلاقل احتجاجاً على سجن أخيها فاستولت على السويقي. من جانبه قام حمود بن عزان بالاستيلاء على صحار التي كانت تحت حكم أبيه، ثم استولى على مدن الخابورة ولوى وشناص، وباتت العاصمة مسقط مهددة. إزاء هذا التمرد الذي تقوده شخصيات من داخل أسرة البوسعيد، لم يجد نائب السلطان في مسقط وسيلة لمواجهة، سوى اللجوء إلى حكومة بومبي التي استجابت بإرسال سفينة حربية رابطة أمام سواحل مسقط لحمايتها، وجهزت سفننا أخرى للتدخل، وطالبت المتمردين الخضوع إلى حكم السلطان سعيد. وعند عودة السلطان إلى مسقط في مايو ١٨٣٠ استغنى عن حماية السفينة الحربية البريطانية، مُفضلاً التعامل مع الوضع بنفسه، فقام بالتفاوض مع حمود بن عزان على أساس أن يبقى الأخير حاكماً على صحار مقابل دفعه جزية سنوية قدرها ثمانية الآلاف روبية إلى خزينة الحكومة، كما أنه أطلق سراح هلال بن محمد، (لوريمر، ١٩٦٧: ٧٠٥-٧٠٦).

- التدخل الثاني: في مطلع العام ١٨٣٢ عادت تطلعات السلطان سعيد إلى شرق أفريقيا مجدداً، فعهد بأمر الحكم إلى ابن أخيه محمد بن سالم وإلى ابنه هلال، الذي عينه والياً على مسقط، كما عين سعود بن علي والياً على بركاء، وأبحر إلى مومباسا، وبمجرد إبحاره عادت القلاقل والانشقاقات إلى بيت الحكم، فقام سعود بن علي باعتقال نائب السلطان محمد بن سالم، وإبن السلطان هلال بن سعيد، وتحرك حمود بن عزان للاستيلاء على الرستاق، عندها تدخل البريطانيون لحماية حكم السلطان سعيد من السقوط، فأبحر المقيم السياسي البريطاني في الخليج بقوة بحرية لحماية مسقط، وإنذار المتمردين بوجود الخضوع للسلطان.

- التدخل الثالث: جاء إثر التمرد الذي أشعله مجدداً حاكم صحار حمود بن عزان باستيلائه على الرستاق، وتهديده سمائل وبدبد، حيث قام المقيم البريطاني في الخليج بزيارة إلى مسقط، وبعث بإنذار مكتوب إلى حمود بن عزان بأن يوقف تمرد على حكم السلطان سعيد، وإلا فإن بريطانيا ستعامله معاملة العدو، لكن هذا الأخير لم يبال بالإنذار البريطاني، (لوريمر، ١٩٧٦: ٧٠٧). حدث هذا التمرد، أيضاً فور مغادرة سعيد بن سلطان الثالثة إلى شرق أفريقيا في نوفمبر ١٨٣٣.

وإذا كانت التدخلات والمواقف البريطانية هذه قد عززت حكم السلطان سعيد بن سلطان ضد تهديد منافسيه من داخل الأسرة البوسعيدية، فإنها لم تتوقف عند ذلك، بل امتدت لتقف في وجه التهديدات الخارجية، التي مثلها الوهابيون والقواسم. المواقف البريطانية من الحروب والصراعات مع القوى الخارجية. شكلت أطماع الوهابية والقواسم في عُمان واحدة من أكثر التحديات التي واجهها حكم السلطان سعيد بن سلطان، لكن محاولات الوهابيين غزو عُمان تعود إلى فترات سبقت حكم السلطان سعيد،

لكن مخاوف البريطانيين من تضرر مصالحهم إذا ما اعتمد بدر على الوهابية - وهو الذي ارتبط بعلاقة وثيقة معهم- دفعهم إلى مساندة بدر بن سيف ضد قيس بن أحمد، (أبو ياسين، ١٩٨١: ٥٦).

العلاقات العمانية البريطانية في عهد سعيد بن سلطان
واصل سعيد بن سلطان سياسة والده سلطان بن أحمد تجاه توثيق العلاقة مع شركة الهند الشرقية البريطانية، لكن الجانب البريطاني، لم يبد، في البداية اهتماماً بالحكم الجديد، رغم المعاهدتين المشار إليهما سابقاً. يمكن تبين عدم الاهتمام هذا من المذكرة التي كتبها عضو المجلس الحاكم في بومبي "فرانسيس وarden Francis Warden" والتي أشار فيها إلى أن معاهدتي ١٧٩٨ و ١٨٠٠ لا تفرضان على بريطانيا التزاماً بتقديم أي مساعدة لأبناء السلطان من بعده، (عبيدي، ١٩٨٣: ٤٥)، وأيضاً من خلال الوصف الذي قدمه المقيم السياسي البريطاني في مسقط "دافيد سيتون"، عن حكومة مسقط وعن سعيد بن سلطان، في خطابه المؤرخ في ١٦ يناير ١٨٠٦، حيث وصفها بغير المستقرة، ولا تظفر بالقبول، وأن سعيد "ذلك الفتى اليافع الغر قليل الخبرة فقد ما كان قد حصل عليه والده من نفوذ فهو لا يقيم اعتباراً للشيوخ الذين يزورن مسقط ما جعله دون أصدقاء تقريباً"، (مختارات وثائق بومبي، ٢٠١٧: ١٦٩-١٧٠).

إن قدرة سعيد بن سلطان على حسم بعض الصراعات الداخلية لصالحه، وتمكنه من إقناع عمه قيس بن أحمد من الإقرار بأحقية الحكم، من جهة، وعمله على تنشيط التعاون مع الفرنسيين في جزيرة موريشيوس من جهة ثانية، دفعت البريطانيين إلى تغيير موقفهم، والإسراع إلى التعاون معه، (روث، ١٩٨٨: ٥٨)، (كيلي، ١٩٧٩: ١٧٥).

لقد كان لإدراك السلطان للمخاطر التي تتهدد حكمه، خصوصاً من قبل الوهابية وحلفائهم القواسم، وفطنته للمكانة التي باتت تحتلها بريطانيا في المحيط الهندي والخليج كقوة قادرة على تقديم الدعم والحماية، كان لذلك الإدراك دور في الإسراع بتوثيق العلاقة بحكومة بومبي البريطانية، (السعدون، ٢٠١٢: ٢٢٤)، غير أن بريطانيا من جانبها، وبهدف وقف التقارب العماني الفرنسي سعت أيضاً إلى توثيق علاقتها بعمان، (الغيلاني، ٢٠٠١: ٥٠٩). ثم جاءت الخطوة البريطانية بإعادة فتح المقيمة السياسية في مسقط في يناير ١٨٠٨، بعد إغلاقها إثر وفاة سلطان بن أحمد، ونشوب الصراع على الحكم، جاءت لتدشن مرحلة علاقة طويلة ووطيدة مع حكم السلطان سعيد، وستطبع فترة حكمه بطابعها، وسيكون للمواقف والأدوار التي لعبتها بريطانيا أثرها على الأوضاع الداخلية في عمان.

المواقف البريطانية من الصراعات الداخلية

تشير المصادر إلى أن بريطانيا تدخلت ثلاث مرات، تدخلًا مباشرًا، لمؤازرة حكم السلطان سعيد ضد عمليات التمرد ومحاولات الاستيلاء على الحكم من قبل أطراف من داخل أسرة البوسعيد .

- التدخل الأول: حدث عندما قام السلطان سعيد برحلته الأولى إلى شرق أفريقيا عام ١٨٢٩، وقد كلف ابن أخيه محمد بن سالم

عداء مع الوهابية.

وإذا كان الهجوم البريطاني العماني على رأس الخيمة في ١٨٠٩/١٨١٠ لم يُنه قوة القواسم، فإن السلطان سعيد واصل حروبه ضدهم منفرداً، فشن حملتين عامي ١٨١٣ و ١٨١٤ غير أنهما لم تحققا أهدافهما في إضعاف القواسم، (غباش، ١٩٩٧: ١٦٩).

الحلف العماني البريطاني ضد القواسم وحلفائهم استمر حتى سقوط رأس الخيمة عام ١٨١٩ وتوقيع ما عُرف بـ"معاهدة السلم البحري" في ٨ يناير ١٨٢٠، وهي المعاهدة التي مهدت إلى إضعاف قوة القواسم البحرية، ومكنت البريطانيين من إحكام سيطرتهم على ساحل عُمان وموانئه، من رأس مسندم وحتى صور، (الطائي، ٢٠٠٨: ١٣٧).

أثر المواقف البريطانية على الوضع الداخلي في عُمان علاقة التحالف التي ربطت بين السلطان سعيد والبريطانيين عززت، دون شك، من حكمه، وساعدته على التخلص من منافسيه الداخليين، ومن خصومه الخارجيين، ومن تثبيت أركان الدولة العمانية بجناحيها الآسيوي والأفريقي، لكن لهذه العلاقة، في المقابل، انعكاسات عديدة على الوضع في عُمان، يمكن حصرها في ملحقين أساسيين:

- الملحق الأول: هو بداية النهاية لتبعية مشيخات ساحل عُمان للحكم العماني. فبعد توقيع "معاهدة السلم البحري"، فرض البريطانيون سيطرة شبه تامة على حركة الملاحة في الخليج، وعلى مشيخات ساحل عُمان، وبالتالي تم تهميش الأسطول العماني وإضعاف موقع عُمان كقوة إقليمية، (غباش، ١٩٩٧: ١٨٢). وهو ما قاد إلى بداية التحرك لانفصال مشيخات ساحل عُمان عن سلطة الحكم في مسقط، (ولكنسون، ٢٠١٠: ٨٢)، وصولاً إلى تفكيك الدولة العمانية بفصل جزئها الأفريقي عن العربي، وذلك في تناغم واضح مع سياسة بريطانيا "القائمة على تفتيت الكيانات السياسية الكبيرة في منطقة الخليج العربي" (البلاشوني، ٢٠١٤: ٥٨). غير أن هذه الأراء لا تستقيم، بالضرورة، مع الأحداث التي شهدتها السنوات الأخيرة من حكم السلطان سعيد بن سلطان، ثم مع الصراع بين أبنائه بعد وفاته، وما نتج عنه. يشير حفيد السلطان سعيد في كتابه عن سيرة حياة جده، إلى أن البريطانيين رفضوا التدخل في الشؤون الخاصة ببيت الحكم، بحسب ما كشفه الرد البريطاني على خطاب السلطان سعيد إلى اللورد "أبردين" الذي أعلن فيه رغبته في توريث ابنه ثويني حكم القسم الآسيوي من دولته، وتوريث ابنه ماجد القسم الأفريقي، (روث، ١٩٨٨: ١٢٧)، وهو ذات الرأي الذي ذهب إليه (الغيلاني، ٢٠٠١: ٥٠٣)، معتبراً أن تعيين السلطان سعيد لإبنه ثويني مشرفاً على الجزء الآسيوي من الدولة العمانية وعاصمته مسقط، وتعيين ابنه ماجد مشرفاً على الجزء الأفريقي وعاصمته زنجبار، هذان الإجراءان مكنا ثويني وماجد من توسيع قاعدة نفوذهما، كل على حده، وأسهما -إلى حد كبير- في انفصال زنجبار عن مسقط. لكن تفجر الصراع بين أبناء السلطان بعد وفاته، خصوصاً بين ثويني الذي

بينها تلك التي حدثت في عهد أبيه سلطان بن أحمد، وتحديدًا عام ١٨٠٠، عندما احتل الوهابيون الريمي وأقاموا قاعدة لهم فيها. وفي العام ١٨٠٣ أعلن الوهابيون الحرب على عمان رداً على التقارب بين سلطان بن أحمد وأشرف مكة، وقد ذكر لورير أن سلطان بن أحمد أعلن ترحيبه بمطالب أشرف مكة الذين كانوا يحاولون الدفاع عن إقليم الحجاز، وتمكنت فرقة القواسم، الذين اعتنقوا المذهب الوهابي، من النزول في جزيرة قشم التي كانت تابعة في ذلك الوقت لعُمان (لوريمر، ١٩٧٦: ٦٦٦-٦٦٧).

السلطان سعيد، الذي ورث مجد أبيه السياسي والعسكري، ورث أيضاً خصوماته السياسية والعسكرية. ويروي (السالمي، ١٩٦١: ١٥٧) أن بداية عهد السلطان سعيد شهدت قدوم حملة الوهابية بقيادة مطلق المطيري، الذي استحل دماء المسلمين، ودعى الناس إلى مذهبه. وتشير المصادر إلى أن مطلق تمكن من إلحاق هزيمة بجيش السلطان سعيد الذي عاد للتو من معركة ضد القواسم، وذلك في الخامس من يناير ١٨١١ (لوريمر، ١٩٧٦: ٦٩٢). غير أن اللافنت، في هذا السياق، هو الموقف البريطاني السلبي من الأحداث، فعلى الرغم من أن البريطانيين سارعوا إلى تقوية علاقتهم بالسلطان سعيد، بعد فترة تردد في بداية توليه الحكم كما سبقت الإشارة، إلا أنهم بقوا على ترددهم في دعمه ضد القوة الوهابية الغازية، إما بسبب خوفهم من الدخول في صراع مع قوة ذات طبيعة عقائدية، وإما بسبب رغبتهم في تركيز جهودهم على حماية الممرات المائية في الخليج وتأمين السواحل والموانئ، دون التورط فيما هو أبعد من ذلك، وهو ما يحقق أهدافهم الاقتصادية والتجارية، وربما أن هذا يفسر الموقف البريطاني المزدوج حيال خصوم سعيد بن سلطان؛ القواسم والوهابية.

على الجانب الآخر، كان الموقف البريطاني من قوة القواسم البحرية، التي بدأت في التعاضل منذ مطلع القرن التاسع عشر، واضحا، وهو ضرورة القضاء على هذه القوة أو إضعافها، خصوصاً بعد مطالبة زعيم القواسم حسين بن علي حكومة بومبي بدفع ضريبة على السفن البريطانية في مياه الخليج، (النجار، ١٩٨٤: ٩٠)، وهو الطلب الذي بدى استفزازياً لقوة استعمارية أصبحت مهمة في المنطقة. وبما أن البريطانيين يعلمون حجم العداء بين السلطان سعيد وبين القواسم، خصوصاً بعد تحالف القواسم مع الوهابية، فقد صدرت التعليمات إلى المقيم السياسي البريطاني في مسقط بإطلاع السلطان بخطة الهجوم على القواسم في رأس الخيمة، وتنسيق الخطة معه. وكان السلطان سعيد قد قاد بنفسه هجوماً على القواسم في خورفكان في العام السابق ١٨٠٨ لم يحقق أهدافه، ويتوق لهاجمتهم ثانية وتخليص بعض المواقع التي يسيطرون عليها على السواحل الشمالية لبلاد.

تحالف السلطان سعيد بن سلطان والبريطانيون في أول حملة عسكرية عُمانية - بريطانية ضد القواسم، وبحسب (روث، ١٩٨٨: ٦٨)، فإن تلك الحملة كانت تخدم مصالح طرفين آخرين في المنطقة، هما الفرس والأتراك، ما قد يعني أن السلطان سعيد كان يهدف أيضاً إلى تهدئة الوضع مع الفرس المطالبين باستعادة ميناء بندر عباس، وإلى توثيق العلاقة مع الأتراك الذين كانوا على

وأكثر تعقيدا من أن يكون نتيجة لعلاقة التحالف التي ربطت حكم السلطان سعيد بن سلطان والبريطانيين، إذ تعود إلى التداخل المبكر في نظام الحكم في عُمان بين القبيلة والمذهب الإباضي، وعدم قدرة الدولة العمانية (دولتي العاربة والبوسعيديين) من إزاحة النظام القبلي والتحول إلى حكومة حضرية بالمعنى الخلدوني، وفي أفضل الأحوال اندمجت الدولة أو الإمارة القبلية إلى شكل من أشكال الإمامة أو السلطنة شبه الدينية وشبه العلمانية، (ولكنسون، ٢٠١٠: ٢٨٦-٢٨٧).

الخاتمة

تمكن السلطان سعيد بن سلطان من الاستفادة من القوة البريطانية، العسكرية والسياسية، لصالح تعزيز حكمه وتقوية دولته التي ستصبح امبراطورية مترامية الأطراف. في المقابل حقق البريطانيون، عبر تحالفهم مع السلطان سعيد، أهدافهم في التحكم في حركة الملاحة في الخليج، والسيطرة على الموانئ الرئيسية في المنطقة، ومنع منافسيهم الأوروبيين من الاستفادة من هذه الموانئ. بهذا المعنى يمكن القول: إن العلاقة بين الطرفين كانت تقوم على التكافؤ وتبادل المنفعة، بصرف النظر عن النتائج والآثار التي سنترتب على هذه العلاقة، وهي نتائج وآثار، كما استعرضنا، ستعيد، في مرحلة لاحقة، لعلها لم تكن في حسابان السلطان سعيد، ولا في حسابان البريطانيين، صياغة الجغرافيا السياسية لعُمان، وستعيد ترسيم حدودها، وستتسم التاريخ السياسي لعُمان منذ منتصف القرن التاسع عشر، وحتى وقتنا الراهن، بميسمها.

على المستوى الآخر، ستبقي علاقة التحالف بين السلطان سعيد والبريطانيين، التوتر بين الحكم في مسقط والقوى القبلية والدينية قائما، وهو ما سينتج عنه، في الفترات اللاحقة لحكم الدولة البوسعيدية، محاولات إحياء حكم الإمامة المتأخرة؛ إمامة عزان بن قيس عام ١٨٦٨، ثم إمامة سالم بن راشد الخروصي عام ١٩١٣، وما تبع ذلك من مواجهات وصراعات بين حكم السلاطين وحكم الأئمة، ستستمر حتى منتصف القرن العشرين، وسيكون لبريطانيا دور مؤثر في حسمها الصراع لصالح حكم السلاطين عام ١٩٥٩.

الهوامش

للمزيد عن صراعات السلطة التي أعقبت وفاة سلطان بن أحمد، وصاحبت بروز سعيد بن سلطان أنظر فصل:

- "بدر التمام في سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي اليمني العماني الأزدي"، ضمن ابن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ج ٦.
- لوريمر، دليل الخليج: القسم التاريخي، مكتب أمير دولة قطر، الدوحة، ١٩٧٦.

لم نجد، لا في المصادر العمانية المبكرة التي أرخت للدولة اليعربية كـ"سيرة الإمام ناصر بن مرشد" لعبدالله بن خلفان بن قيصر، ولا في "كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة" لسرحان بن سعيد الأزكوي، ولا المتأخرة كـ"تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان" لعبدالله

أعلن نفسه سلطانا في مسقط، وأخيه تركي من جهة، وبين ثويني وأخيه ماجد الذي أعلن نفسه سلطانا في زنجبار من جهة ثانية، دفع البريطانيين إلى التدخل، خوفا من تأثير الصراع على المصالح البريطانية، سيما وأن هناك درجة من درجات التقارب بين ثويني والحكومة الفرنسية التي أظهرت تأييدا لتوحيد شطري الدولة تحت حكم ثويني (العجيلي، ٢٠١٣: ١٨٥). هذا التدخل أفضى إلى ما يعرف بـ"الجنة تحكيم كنعنغ" والتي انتهت عام ١٨٦١ إلى فصل زنجبار عن مسقط، وإعلانها سلطنة مستقلة عن عُمان. غير أن فصل زنجبار عن مسقط، وبداية النهاية للحكم العماني في شرق أفريقيا، قد لا يكون بسبب تأثير المواقف البريطانية وحدها، إنما أيضا، وربما في المقام الأول، بسبب الصراع على وراثة الحكم الذي تركه السلطان سعيد غير محسوم بين أبنائه.

- الملحق الثاني: المواقف البريطانية المؤيدة للسلطان سعيد ساهمت في توسعت شقة الخلاف بين السلطان وبعض القوى العمانية المكونة من زعماء القبائل وعلماء المذهب الإباضي. تلك القوى التي كانت، على الدوام، تنظر إلى التقارب بين السلطان والبريطانيين بعين الريبة وعدم الرضى، وبدأت منذ ذلك الوقت ملامح الانقسام بين سلطتين؛ دينية وزمنية. ولعل ابرز توصيف لحالة الخلاف هذه ما كتبه (السالمي، ١٩٦١: ١٥٩) الذي وصف ذلك التحالف بالوباء أو الآفة على عُمان: "استعان السلطان بالنصارى على حرب أهل الشارقة من أرض الشمال فقهر بهم عدوه، وكانت هذه الاستعانة منه أول سبب تدخلت به النصارى في ممالك المسلمين من أهل عُمان فبقوا آفة في زرابيه وعله في مملكته".

ونتيجة لذلك بدأت ملامح تشكل نظام حكم ذي طبيعة زمنية لا دينية، مختلفة عما عرفه نظام الحكم في عُمان في المراحل التاريخية السابقة، لكن من المهم القول أيضا أن البذرة الأولى لهذا النظام زرعتها استيلاء حمد بن سعيد على الحكم واتخاذ مسقط عاصمة، وتسمية نفسه بـ "السيد" (بادجر، ٢٠١٢: ٦٩)، متأثرا، في هذه التسمية على ما يبدو، بلقب "سير/ سيد" الذي يمنحه البلاط الملكي البريطاني، تاركا حكم الإمامة، دون فاعلية حقيقية، بيد أبيه الإمام سعيد بن أحمد المنعزل في عاصمته الرستاق، ثم جاء السيد سلطان بن أحمد ليطور نظام الحكم ذي الطبيعة الزمنية هذا، ويرسخ قواعده، قبل أن يأتي سعيد بن سلطان ويضفي عليه الطابع السلطاني الزمني الذي قطع، بصورة أكثر وضوحا، مع الحكم ذي الطبيعة الدينية. وإذا كان البريطانيون ليسوا من دفع حمد بن سعيد إلى انتزاع الحكم من أبيه، ونقل العاصمة إلى مسقط، فإنهم استفادوا من تطلع حكام الأسرة البوسعيدية إلى الانفتاح أكثر على العالم وتوسيع نفوذهم السياسي والتجاري، وارتباطهم بما يمكن وصفه بـ "الرأسمالية العالمية"، أو بحسب باتريشيا ريسو، فإن "التشابك" بين البريطانيين والحكام البوسعيديين منذ أواخر القرن الثامن عشر كان سببا لعزلة علماء المذهب الإباضي عن نظام الحكم، وبالتالي عزلة عُمان الداخل عن عمان الساحل، (Risso, 1986: 112). غير أن جذور الانقسام في نظام الحكم، بين الساحل والداخل، وبين الزمني والديني، أعمق

المراجع أولا العربية:

إبن رزيق، حميد بن محمد (٢٠١٦). الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ج٢، ط٦، تحقيق: محمد حبيب صالح و محمود بن مبارك السليمي، مسقط: وزارة التراث والثقافة.

أبو ياسين ، سمير محمد علي (١٩٨١). العلاقات الغمانية البريطانية ١٧٩٨-١٨٥٦، ط١، البصرة: مطبعة جامعة البصرة.

بادجر، جورج بيرسي (٢٠١٢). مقدمة كتاب تاريخ أئمة وسادة عمان، ط٢، ت: محمد علي الداود، مسقط: وزارة التراث والثقافة.

البلاشوني، وفيق (٢٠١٤). عمان في المصادر البريطانية، ط١، القاهرة: مركز اليا للناشر والإعلام.

روث، رودولف سعيد (١٩٨٨). السيد سعيد بن سلطان، ط١، ت: عبد المجيد حسيب القيسي، بيروت: الدار العربية للموسوعات.

السالمي، عبدالله بن حميد (١٩٦١). تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، القاهرة: مطبعة الإمام بالمنشية.

السعدون، خالد (٢٠١٢). مختصر التاريخ السياسي للخليج العربي، ط١، بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.

السيار، عائشة (١٩٧٥). دولة اليعاربة في عُمان وشرق أفريقيا، ط٢، بيروت: دار القدس.

شاكرا، محمود (٢٠٠٥). موسوعة الخليج العربي، ط١، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.

الطائي، عبدالله بن محمد (٢٠٠٨). تاريخ عمان السياسي، ط٢، الكويت: مكتبة الريبعان.

عبيدي، أحمد (١٩٨٣). الإمام عزان بن قيس: جوانب من التاريخ العربي الإسلامي في ظل الهيمنة الأوروبية، ط١، بيروت: دار الحداثة.

العجيلي، غانم (٢٠١٣). عمان والسياسة البريطانية في شرق أفريقيا، ط٢، بيروت: الدار العربية للموسوعات.

غباش، حسين (١٩٩٧). عمان الديمقراطية الإسلامية، ط١، ت: أنطوان حمصي، بيروت: دار الجديد.

الغيلاني، يوسف (٢٠٠١). التاريخ السياسي العام لفترة حكم السيد سعيد بن سلطان، دول مجلس التعاون الخليجي عبر العصور. ١. مسقط: جامعة السلطان قابوس.

فوزي ، فاروق عمر (٢٠١٤). تاريخ اليعاربة في عُمان، ط١،

بن حميد السالمي، إشارات إلى وجود اتصالات أو مفاوضات بين الإمام ناصر بن مرشد وبين البريطانيين، غير أن هذا لا يعني، بالضرورة، عدم وجود اتصالات، إذ طالما أغفل المؤرخون العمانيون الإشارة إلى القوى الأجنبية، أما بالنسبة للمصادر المتأخرة، أنظر: - Skeet, Ian, 1974, Muscat and Oman: the end of an era. Faber & Faber, London.

- الهنائي، عبد الملك، ١٩٩٨، الدولة اليعربية: منظور خلدوني، مجلة نزوى، العدد، ١٦، ص: ٣١-٤٠.

- ولكسنون، جون سي، ٢٠١٠، الإمامة في عمان، ط١، ت: الفاتح حاج التوم و طه أحمد طه، المركز الوطني للوثائق والبحوث، أبوظبي.

- فوزي ، فاروق عمر، ٢٠١٤، تاريخ اليعاربة في عُمان، ط١، دار مجدلوي للنشر والتوزيع، عمان.

أنظر الوثيقة 842 Ref.fac 9/4015 الجزء ٩. ص ١٨٣-١٨٤ ، المجلد ٩، الجزء الثاني من الوثائق البرتغالية المترجمة:

Al-Salimi, Abdulrahman and Jansen Michael, ed, 2015, Portugal in the Sea of Oman, Religion and Politics, Georg Olms Verlag, Hildesheim. Zurich. New York للاطلاع على نص المعاهدة أنظر: مختارات من وثائق حكومة بومبي، ص ٢٢٢

للمزيد عن التدخل البريطاني، أنظر:

- لوريمر، المصدر السابق، ص ٧٠٥ - ٧١٠.

- روث، السيد سعيد ١٧٩١-١٨٥٦، سيرته ودوره في تاريخ عُمان وزنجبار، ص ١٣٠-١٣٤.

جاء كلام الشيخ السالمي في معرض روايته لـ"الأحوال الواقعة في دولة السلطان سعيد بن سلطان". الجزء الثاني من تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان. ورغم إشارته إلى أن السلطان استعان بـ"النصاري" البريطانيين، فإن الحقيقة أن أهداف الطرفين؛ البريطانيين وسعيد بن سلطان، تلاقت في الهجوم على القواسم.

منذ قيام الإمامة الإباضية الأولى؛ إمامة الجندي بن مسعود عام ٧٤٩م قام نظام الحكم في عُمان على المبادئ التي أسست لها الحركة الإباضية، وأهمها الشورى والاختيار. وبقي العمانيون ينتخبون أئمتهم وفقا لمبادئ الحركة حتى قيام الدولة النبهانية عام ١١٨٣ ، لكن الفترة النبهانية التي امتدت نحو خمسة قرون شهدت محاولات عديدة لإحياء الإمامة وانتخاب الأئمة، حتى ظهور الدولة اليعربية (١٦٢٤) حيث عاد حكم الإمامة قويا، ومع ظهور الدولة البوسعيدية شهد حكم الإمامة تراجعاً، وتحديدًا بعد وفاة المؤسس الإمام أحمد بن سعيد، وانتقال الحكم وراثته إلى ابنه سعيد الذي ورث أيضا لقب الإمامة دون أن تذكر المصادر أنه كان منتخبا وفقا لقواعد المذهب الإباضي.

عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

كلي، جون (١٩٧٩). بريطانيا والخليج، ط ٢، ت: محمد أمين
عبدالله، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.

لوريمر، ج.ج (١٩٧٦). دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء
الثاني، ط ١، الدوحة: مكتب أمير قطر.

ولسون، أرنولد ت (٢٠١٦). تاريخ الخليج، ط ٤، ت: محمد أمين
عبدالله، مسقط: وزارة التراث والثقافة.

ولكسنون، جون سي (٢٠١٠). الإمامة في عمان، ط ١، ت: الفاتح
حاج التوم و طه أحمد طه، أبوظبي: المركز الوطني للوثائق
والبحوث.

مختارات ووثائق حكومة بومبي، (٢٠١٧). ط ١، الدوحة: مركز
حسين بن محمد بن علي آل ثاني.

النجار، مصطفى عبد القادر (١٩٨٤). تاريخ الخليج العربي
الحديث والمعاصر، ط ١، البصرة: جامعة البصرة.

الهنائي، عبد الملك (١٩٩٨). الدولة اليعربية: منظور خلدوني،
مجلة نزوى، ١٦، ٣١-٤٠.

ثانياً الأجنبية:

Clarck, Terence & Richard Muir, 2008, British Mossions
around the Gulf 2005-1575, Global Orient LTD, Kent.

Skeet, Ian, 1974, Muscat and Oman: the end of an era.
Faber & Faber, London.

Russo, Patricia, 1986, Oman and Muscat: An Early
Modern History, Routage, Oxford.